المنطوي .. وعوامل الانطواء

بقلم صقر الخوري

الانطواء – بأبسط تعبير – هو الانغلاق على الذات ، وعدم الرغبة في تجاوزها ، للتمازج مع الآخرين . انه بتعبير أكثر دقة ، التخلي عن الخارجيه لمصلحة الداخلية .. فما هي الدواعي التي تجعل المنطوي منطويـا ؟

ربما امكننا ان نجمل اهمها فيما يلي :

التربية البيتية

ان النظريات الحديثة التي تعالـج المشاكل التربوية كثيـرة ومتضاربة ، ولكنها كلها تقريبا ، تجمع على ان لكـل ، طبيعته الخاصة وخلقه الخاص ، وانه يجب أن تتماشى التربية مع هذه الطبيعة ، اكثر مما تجانبها . غير ان اكثر الاباء يجهلون ، او يتجاهلون هذه الحقيقة، ويفرضون على ابنائهم نمطا تربويا موحدا ، هو النمط الـذي يرضون عنه ، ويتناسب مع مزاجهم ، فالبعض من ابنائهم ، ينغلق بعد ان كـان منبسطا ، والبعض الاخر ، ينبسط بعد انغلاق . والدليل على ذلك ، اننا لو اتينا بطفلين يتمتعان بالصحة العقلية والفيزيولوجية المناسبـة وعرضنا احدهما للضغط والحرمانات المتتالية ، بينما انفتحنا للاخر ، ولبينا له كل رغباته المألوفة لالفينا ان الاول ينكفيء على ذاته مع الايام، ويقتل رغباته ، الواحدة بعد الاخرى ، بينما ينشط الثانـيْ ، وتتسع آفاقه ، وتتوضح شخصيته باطراد ..

اذن اذا اغفل الآباء هذه الحقيقة ، واذا اغفلوا ايضا حقيقـة اخرى أدلى بها الفيلسوف الاميركي « وطسن » وهي ان الآباء يغزلون مصائر ابنائهم وهم في المهد . اي انه في السنوات الاولى مـن عمـر الطفل ، والتي يعتبرها الآباء سابقة لاوان التربية تتحـدد الخطوط الاساسية التي على ضوئها يرسم الطفل تاريخه . فاذا اهمل الآبـاء فعلا ، هذه الحقبة من عمر الطفل ، وهم غالبا ما يهملونها على اعتبارها مرحلة غريزية أو حيوانية ، فانهم يفسحون المجال لكي تتكون شخصية الطفل كيفما كان ، او لتكون صورة صادقة الى حد بعيد عـن شخصية الآباء انفسهم ... في حين ان واقـع الحال يستدعي ، ان نراقب حركات اطفالنا العشوائية ، فنشجع الصالح منها ، ونقـوم المنحرف ونقضي على الفاسد ، على ان نستنير ، خلال ذلك كله ، بمـا ترشدنا اليه النظريات التربوية الحديثة الموثوق بها ، دون أن نتأثر بارائنـا واهوائنا ، وان كانت تناقض تلكم النظريات ، وحين يتعرض الابنـاء لتربية آباء متزمتين مغلقين ، ويبذرون فيهم بذور الانطواء التي تترعرع وتزدهر اذا لاقت لها تربة صالحة في المراحل التالية ...

التربية المدرسية :

وفي المدرسة ، وخاصة في المرحلتين الاولية والابتدائية ، يظـل الطفل مجرد لوحة صالحة للتسجيل ... فاذا ذهب الطفـل اليها ، بعدما لقنه ابواه الدروس الاساسية التي هيأته لان يكـون منطويا ، والتقى هناك برفاقه ومعلميه ، فانهم للوهلة الاولى ، يطلقون عليـه « بما فيهم المعلم » لقب البليد والمغفل ... ولانه ليس بليدا ولا مغفلا فعلا ، ينكمش على ذاته بادىء ذي بدء ، ويحار في تحليل هذا السلوك الذي يسلكه ازاءه الاخرون ، وتأخذ بـذور الشك والريبة بالاخرين ، تنمو في أعماقه ، يرافق ذلك محاولات مستمرة لتجنبهم ، حتى ينتهـي به الامر الى محاولة الفرار من هذه البيئة غيـر الصالحة ، حسب تقديره ، خاصة اذا لم يعمد القائمون علـى تربيته ، مـن معلمين وموجهين ، الى سبر أغواره ، ومعرفة الاسباب الحقيقية التي سوتـه على هذا الشكل دون الاخر ، ومن ثم محاولة ترميم هـذا الذي افسده الوالدان ، وتقويم ما أعوج في سلوكية الطفل ...

وهكذا نلاحظ شأن المدرسة الهام فـي تكوين شخصية الطفـل وبنائها ، والدور الذي تلعبه في جذب الطفل نحو هـذا النوع مـن السلوك او ذاك ذلك انها تقبض على زمامه حين يخرج من أضيق بيئـة كانت تحدب عليه ، وتستلم مهمة ايصاله الى اوسع بيئة . وهـي المجتمع .

ان الطفل ، قبلما ينطلق الى المدرسة يكون قابلا باطلاق .. الموجود هو ما يتلقاه من والديه ، وهو الصحيح دون غيره ، ويظل شأنه هكذا في السنين الاولى من دراسته . ولكنه بعد ذلك يبدأ في مناقشة مـا يعرض عليه ، انه في سني الطفولة البحتة يعرف الشيء دون نقيضه ، وفي المرحلة التالية يعرف الشيء ونقيضه ، دون ان يميز بيـن الشيء والنقيض . ففي اعتباره . الشيء شيء ، والنقيض شيء وكلما نمـا ، نمت في اعتباره ، الفروق بين الشيء والنقيض ، حتى يصل الـى مرحلة التمييز الكامل في سن الرشد ...

والمدرسة هي التي تشرف دون غيرها على سلوكية الطفل ، منـذ تدب الديناميكية في تفكيره ، حتى يبلغ مرحلة الادراك ، انه هو فـي رحابها ، يتدرج من الادراك الغامض الى الادراك المختلط الـى الادراك الواضح ... ومنذ المرحلة الاولى يبدأ في شق طريقه نحو الانطواء ، ام نحو الانفتاح ، أم يبقى بين بين ... وكيف يكون منطويا ، هـو مـا سنشير اليه ونحن نشير الى تأثير المجتمع على المنطوي وبنيته العقلية والفيزيولوجية .

اثـر البيئة :

بعد عهد التلمذة ينطلق المرء نحو المجتمع ليدخل معترك الحيـاة وقد تحدد اتجاهه الى حد بعيد ولكن من الناحية النظرية ، اما مـن الناحية العملية ، من ناحية تطبيق ما تلقنه على مقاعـد الدراسة ، تطبيقا يتفق مع المبادىء التي حفظها عن ظهر قلب فانـه يلقى نفسه لا يزال في مراحل الطفولة لانه غالبا ما يلاحظ ان نقائض تلك المبادىء هي التي تطبق عمليا فيشمئز ويثور ويأخذ على عاتقه ، اعادة الحق الى نصابه فيصطدم بالهزء والسخرية والفشل الذريع ... وهنـا يفرض عليه اختيار احد طريقين : اما ان ينسى كل ما لا يتفق مع ما هو سائر في مجتمعه ، ويعود الى مرحلة التقليد من جديد ، واما ان ينكفيء على ذاته لانه يطلب منه أن يواجه ضغط المجتمع كله دفعة واحدة ، وفـي هذه الحالة ايضا يقف قبالة ثلاثة مواقف :

اولها : ان ينهزم امام ضغط المجتمع ويسايره في افكاره التـي كرسهـا .

وثانيها : ان يهزم المجتمع ويهدم ما كان سائدا ليسد مكانه ، ما هو اكثر صوابا وحقيقة .

اما ثالثها : فهو موقف الانطواء ، الذي لا يستطيع فيه ان يتقبل اراء المجتمع السائدة ، كما لا يستطيع ان يهزمها .. انه في هذه الحالة الاخيرة ، يمكن ان يعتبر منطويا مثاليا ان صح هذا التعبير ، لان المواقف التي يناصرها يمكن أن تكون المواقف الصحيحة الا انه بعد ذلك يجنح الى التزمت في ادانة المجتمع وفي ادانة نفسه ، اذ يعتبر ان اية هفوة

أو خطيئة تصدر عنه أو عن المجتمع ، كافية لان تهدم القيم الانسانية برمتها . وربما خطر له انه يلزم ان يكون مسؤولا عن ترميم اي خطأ يقع امام مسمعه وبصره . وليس ذلك بوحي من رهافة حساسيته وحسب بل فوق ذلك ، انه اصبح يعتبر أن كل ما يصدر عن المجتمع لا يمثل وجهة النظر الصحيحة التي أصبح هو راعيها الشرعي ، وهكذا يتضخم شعوره العدائي نحو المجتمع يوما بعد يوم . ولسوء حظه ، فان المجتمع لا يحاول ان يدفع عنه هذه الاوهام بقدر ما يعمل ، ان عامدا او عن غير عمد ، على رفد هذه الاوهام بمدد متواصل ينميها في اعماقه ويزيدها رسوخا وتعقيدا . ذلك لان الفئات الشاذة هي التي تستقطب انتباه كل مجتمع واذا كان العباقرة يفوزون بثناء الناس وتقديرهم ، فان حصيلة المنحرفين تتبع الخط التالي : الاستهجان والاستخفاف اولا ، ثم الردع والمقاومة اخيرا ... وشذوذ المنطوي لانه من نوع خاص ولا تنبعث عنه ردود فعل سلبية تصيب الآخرين بشكل مباشر ، فانه ـ نادرا ما يتعرض للمرحلة الاخيرة ، مرحلة الردع والمقاومة ، بقدر ما يتعرض الى ردود الفعل السلبية التي يصدمه بها المجتمع ، ليصون ما يعتبره مقدساته وتقاليده ، والتي لا تني همة المنطوي وهو يحاول هدمها وبعثرتها ..

ومن هنا يمكننا أن نستنتج الموقف الخاطىء بالنسبة الى الجانبين: المجتمع والمنطوي . فالمجتمع يخطىء ، أو قل يغالي ، عندما يعتبر المنطوي عنصرا رديئا ، وعندما يكف عن اصلاحه ، بحجة عدم قابليته للاصلاح .. وعندما يعتبر انه غير مسؤول عن انطوائه . فالمنطوي أولا، ليس عنصرا رديئا كما يبدو لاول وهلة ، لانه وان تبدت صور السلبية في سلوكه ، التي غالبا ما تفصم الاواصر التي تشده الى المجتمع ، فان هذه الصور نفسها ، تخلق في اعماقه دوامة قلق ، تنقلب في غالب الاحيان ، الى احساس بالمسؤولية وشعور بالذنب ، يخفف كثيرا من حدة مجافاته للمجتمع ..

والمنطوي ثانيا ، تجمعت عوامل كثيرة منها خارجية، ومنها داخلية ـ كما رأينا وكما سنرى ـ حتى سوته على ما هو عليه . انه انسان قبلما يكون منطويا ، فاذا أكدنا عدم صلاحيته للحياة السوية ، وبالتالي عدم القدرة على تقويمه ، فكأننا نؤكد ان بذور الانطواء قد تمكنت في اعماقه ، لدرجة لم يعد صالحا معها الا لحياة الانطواء ، وهذا ربما خالف الى حد بعيد مجمل الآراء الرائجة علميا ، والقائلة بأن ديناميكية الفكر الانساني مستمرة ما دام الفكر موجودا ، وأنها تنشط باطراد كلما نشطت حركة الفكر ، واذا كان الامر كذلك ، فان المجتمع مسؤول عن نزع بذور الانطواء التي زرعها في ذات المنطوي .

واخيرا ، فان ادعاء المجتمع بانه غير مسؤول عن انطواء المنطوي ، فيه كل المغالاة ، بالاضافة الى انه تبرير زائف للهروب من التبعة ، ذلك لاننا لو اقصينا طفلا عن المجتمع ، فانه لا يمكن ان نلقاه منطويا في سن الرشد ، ولا منبسطا ، بل لا يمكننا ان نطلق عليه اي لقب انساني . وهذا يعني ان الانسان بلا مجتمع ، مثل الحجر قبل البناء ، ولكن كما انه لكل حجر مكانه في الجدار ، كذلك لكل انسان مكانه في المجتمع ، ولكي لا تكثر الثغرات في المجتمع ، يجب أن يولي عناصره العناية الكافية التي تحافظ على سلامة بنيانه ، لانه لو فرضنا ان عناصر المجتمع قد توزعت الى طائفتين : طائفة منطوية ، وطائفة منبسطة فالطائفة الاولى لا بد ان تفقد المجتمع قسطا كبيرا من جهودها ، بسبب انطوائها ، والطائفة الاخرى ، تهدر جانبا من امكانياتها لتقوم ما تفسده الطائفة الاولى .. وبعملية ذهنية بسيطة ، ندرك ان المجتمع خسر الجانب الاكبر من جهوده ، والذي يفوق ما يمكن ان يبذله ، وهو يحدب على افراده في الوقت المناسب ...

وهكذا وبعد ان أوضحنا مواضع الخطأ في مواقف المجتمع ازاء المنطوي ، بقي ان نوضح مواضع الخطأ في مواقف المنطوي ازاء المجتمع. تقول ، مواضع خطأ المنطوي ، بعد أن نعتبره عنصرا سويا من عناصر المجتمع ..

ولكن ، هل يحق لنا ان نعتبر المنطوي عنصرا سويا ؟؟. اليس الانطواء بحد ذاته خطأ وسلبية ، وتجميدا للفعالية الانسانية ، ذلك ان الانسان يتميز عن الحيوان بالفكر ، فالانسان فكر ، والفكر يفكر ، والتفكير حركة تتجه ، اما الى الامام فتكون ايجابية ، ام الى الخلف فتكون ـ كعملية فكرية ـ ايجابية ايضا ، اما تعطيل العمليات الفكرية او وقوفها في مكان ، فانه مناقض لطبيعة الفكر ذاته ... واذا قلنا ان الانطواء هو عملية لتجميد الفكر ، فهذا يعني اولا ، ان الانطواء فوق الفكر ويعني ثانيا انه خارج الفكر ، ويعني ثالثا انه مناقض للفكر ، مع ان واقع الحال يؤكد لنا ، ان الانطواء خادم للفكر ، وانه داخل الفكر ، وانه من طبيعة الفكر ،فكيف نحل كل هذه الاشكالات :

البنية العقلية للمنطوي :

أ ـ الانطواء يماشي الفكر :

حين قال ديكارت ((انا افكر .. اذن انا موجود)) كان يقصد ، ان الوجود يتأكد بالفكر ، فهو لذلك يلي الفكر ، ولكنه يسبق مظاهره .. يجب ان اكون موجودا حتى انطوي .. فالانطواء في المرحلة الثالثة من الفكر : الفكر .. فالوجود .. فالانطواء واذا ارتبط وجود التالي بوجود ما يسبقه ، فيجب أن يكون لهذا السابق السلطة والهيمنة على ما يليه، وهذا يعني ان الانطواء يصدر عن الوجود ، والوجود يصدر عن الفكر ، فالانطواء يصدر اذن عن الفكر ، صدور الحرارة عن اشعة الشمس ، فهو اذن ليس فوق الفكر ، ولا هو عملية لتجميد الفكر ، بل هو صورة من صور الفكر ، انه صورة ، ثابتة الى حد ما ، وكامدة الى حد ما ايضا ....

ب ـ الانطواء من عناصر الفكر :

ان عناصر الانطواء ، موجودة في اصول الفكر ، فليس لاحد ان يدعي انه لم يعان الانطواء اطلاقا ، ان اشد الناس لصوقا في الحياة ، وانفتاحا عليها ، يعانون في أزماتهم الفكرية والعاطفية ، أحد ضروب الانطواء ، انهم ينطوون اكثر من المنطوي فلو كان الانطواء مجرد عادة تفد على الفكر من خارج ،لتعذر الانطواء على هذا النفر من المنبسطين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، نلاحظ ان الفكر ينطوي بنفس الطريقة التي ينبسط فيها ، وبنفس الطريقة التي يواجه فيها الاشياء ، انه يحول هذه الاشياء الى فكر ، ثم يعالجها بعمليات فكرية ، انه لا ينتقل الى الاشياء ، بل ينقل الاشياء اليه ، لان من طبيعة الفكر ان يحوي كل شيء ، بينما ليس من طبيعة كل شيء ان يحتوي الفكر ، والانطواء ان لم يكن شيئا في الفكر ، فهو (عملية من عمليات الفكر ، ((انه علاقة معقدة بين الفكر والاخرين)) . تنقلب في النهاية الى علاقة معقدة بين الفكر ونفسه . فالمنطوي في المراحل الاولى من انطوائه ، يعتقد انه المصيب دون الاخرين ، لذلك يبدأ في مشاكستهم ليعيدهم الى الصواب ، وحين يمتنع عليه هؤلاء ، يظل معتقدا انهم عامهين في الخطأ . ولكنه ينفك عنهم رويدا ، حتى ينكفىء على ذاته في النهاية ويغلق كل الابواب التي تصله بالآخرين ، لكي يهنأ بالراحةالنفسية، ولكنه يفاجأ بمقاومة أعتى من تلك التي كان يلقاها من الاخرين .. صراع عنيف يدور بينه وبين ذاته ، حول كل مشكلة يجبه بها ، انه لا يدري ان المجتمع لا يزال قابعا في اعماقه ، وان التنافس مستمر بين ((الانا والهم)) انه يعتقد ان الامور يجب أن تكون على هذا الشكل وليس على ذاك .. غير ان الامور تظل هي هي .. ان الامور تظل هي هي ، بالنسبة الى المنطوي ، وبالنسبة الى الاخرين ، ولكن الاخرين، يرونها كما هي ، ويدعونها كما هي ، بينما المنطوي ، يراها كما هي لينقلب عليها ، ليجعلها كما يرغب أن تكون ، يفصل لها أطرا ليصبها فيها من جديد ، سيان عنده ان تكون هذه الاطر ممسوخة ام فضفاضة .. ولكن لا الامور تبدي طواعيتها لقبول اية ماهية ينسجها لها ، ولا الـ ((هم)) القابعة في اعماقه ، ترضى ان تقلب نواميس الحياة ، كل

يوم أكثر من مرة .. ولذلك تظل الامور كما هي ، بينما يشوى المنطوي بنار التمزق والقلق .. ولكن لماذا يحدث هذا التمزق في الفكر بسبب الانطواء ، اذا كان الانطواء فكرا أم من الفكر ؟؟. واذا كان الانطواء من مظاهر الفكر ، فلماذا لا يكون انسجاما من انسجاماته ؟؟ لماذا لا ينطوي الفكر ، تماما مثلما يحل مسألة رياضية ، ام يستظهر قصيدة جميلة ، او قل ، لماذا ينطوي الفكر على غير رغبة منه ..

اسئلة ليست على جانب من السهولة ، ولكن فرض الازدواج في ذاتية المنطوي ، قد يسهل علينا حل هذه الالغاز ، وترجمة مشاعر المنطوي التي غالبا ما يعسر ترجمتها على غير المنطوي :

في حالات كثيرة ، يتمكن المنطوي ، بل يتمنى ، أن يحاكي سلوك الاخرين ، ويماشيهم في اعتباراتهم ، ولكنه حين يتذكر انه رسم لنفسه في اذهانهم صورة معينة مثل تلك التي اسماها احد الفلاسفة « بالبرسونا » . يقسر نفسه على التراجع عن رغباتها . وهنا يدور الصراع بين ميله لان يكون كالاخرين ، وميله لان يكون مناقضا للاخرين ، ولانه ، وكما ذكرنا ، اتجه اتجاها يناقض اتجاه الاخرين ، يناصر الميل الثاني ، بغض النظر عن : اي من الميلين اقرب الى الحقيقة من الاخر ، حتى لا يسجل عليه تنازل عن موقفه الرسمي المعروف .. غير ان موقفا مثل هذا ، لا ينقضي دون آثار يتركها خلفه ، انه يفصم الباقي من العرى التي تشد المنطوي نحو المجتمع ..

وهكذا يبتعد المنطوي عن مجتمعه ، حادثة بعد حادثة ، وحين يبلغ التناقض بينهما منتهاه ، تتلاشى حدة التنافر بينه وبين مجتمعه ، لتبدو على اشدها ، بينه وبين نفسه ، ذلك انه في البدء ، يقابل المجتمع بقسوة وعنف ، آملا ان يهزمه ويؤكد ذاته ولكن الذي يحدث ، هو ان ذاته تنهزم وتتأكد مفاهيم المجتمع ، وعند هذه النقطة تندمج الازدواجية، في الموقف المناقض الذي يقفه المنطوي ، والذي يتجلى كل التجلي في سلوكه السلبي الذي يجبه به نفسه كما يجبه الاخرين .. انه يعتبر انه في حل من كل ارتباطاته مع الاخرين ، انه يفرض على ذاته موقف اللاالتزام المطلق ، حتى في الحالات التي يفرض عليه فيها ـ من الداخل ـ أن يلتزم ، اي انه بعبارة اخرى ، يلزم ذاته ان تقف موقف اللاالتزام ، رغم التمزق الذي يعانيه ، وهو يتجه اتجاها ينافي طبعه وخلقه وكل ما يميل اليه ..

فلماذا يقف المنطوي هذه المواقف المناقضة ، لماذا يعاكس تيار الحياة ، ويسير على الرصيف المخالف .. لماذا يبذل كل الجهد ليشد الاخرين اليه ، ولا يرضى بحال ان يسعى نحوهم ؟؟ ..

الفشل ، من اسباب الانطواء :

الذي ينفي مفاهيم الاخرين ، ويحل محلها مفاهيم اخرى ، يعتبر برأي الجميع ، مصلحا أو منقذا ، أو محررا ، أو يسمى بأي اسم اخر ، الا ان لقب المنطوي ، لا يمكن ان يطلق عليه بأي حال من مثل هذه الاحوال.. اما الذي يحاول سلب المجتمع مفاهيمه ، لاستبدالها بما هو افضل منها او اردأ ، فيصدمه المجتمع ، وتصدمه المفاهيم اياها، لرسوخها وصلابتها ، ولكنه رغم الصدمات المتتالية ، يظل مستمرا في محاولاته ، وفي تلقي الضربات ، هذا هو ما يمكننا ان نطلق عليه لقب المنطوي الذي لا يختلف في البدء عن اي انسان اخر ، ينشأ نشأة عادية ، ان في طباعه ، ام في طريقة تفكيره ، الا انه يبدأ في التحول بعد ذلك ، ويتجه اتجاها مخالفا لاتجاه الاخرين ، حين يخونه النجاح وهو يحاول التلاحم معهم ، خاصة في الجولات الاولى التي يجوس فيها ميدان المجتمع . ذلك ان الفشل الذي يحفزه في المرات الاولى ، يضعه في المرات التالية أمام فرضيات ، يمكن لكل واحدة أن تمزق ذاتية هذا المنطوي . فاذا عزا اسباب فشله الى وضاعة نسبه ، يستولي عليه شعور انه ادنى مرتبة من الاخرين ، ويهجر المجتمع ، ويسلك الطريق المؤدية الى الانطواء .. وان عزاها الى نقص في اهليته، وضيق في أفقه ، يشعر بالمرارة ، وينسحب من المجتمع سالكا طريق الانطواء .. وان ردها الى المجتمع ، يظن ان المجتمع يتآمر عليه ، وانه يجب ان يكون حذرا منه ، فيسلك طريق الانطواء .. وان اعاد حدوث ما حدث الى القضاء والقدر ، يسيء الظن بالقضاء والقدر ، وينغلق على ذاته ، حتى يصبح بلا قضاء ولا قدر ... أما أن أرجعها الى الله تعالى ، فلا يسعه الا ان يسلم ، بان ما يكون ، يجب ان يكون على الشكل الذي عليه كان ...

وعلى اي حال ، ليس المهم ان تكون اسباب الفشل هذه ام تلك ، بل المهم انه يحصل لديه اعتقاد ، ان الفشل مقدر له وسوف يلاحقه في كل مكان وكل زمان ، وانه عليه ان اراد ان يتجنب الفشل ، ان يتجنب الحياة وينطوي ..

الحرمان .. يؤدي الى الانطواء :

تقول النظريات التطورية ، ان نمو الاعضاء يتفق مع استعمالها ، فكلما قل استعمال العضو ، كلما مال الى الضمور .. فالحرمان باشكاله ـ حسب هذه النظريات ـ يشبط ـ اذا تتالى ـ الفعاليات الفكرية والفيزيولوجية ، وخمود الفعاليات هذه ، يحد النمو الفكري والفيزيولوجي للانسان ، او يخل في توازن هذا النمو على الاقل ، مما يؤدي الى قصور في الشخصية ، يدفع الى سلوك لا يتفق في غالب الاحيان مع سلوك الاخرين ، والى ارتكاسات متتالية ومتنافرة ، ينتج عنها ميل ملح الى اعادة التوازن بين عناصر الشخصية ، وحين يتعذر ذلك ـ بعد لاي ـ لا يبقى امام مثل هذا الانسان ، الا ان يختار واحدا من موقفين : اما أن يلاشي شخصيته ... واما ان ينطوي .. ولما كان الانطواء اكثر اشتدادا من التلاشي ، فانه يفضل أن ينطوي قبلما يتلاشى .. هذا من جانب ، اما من الجانب الاخر فان للحرمان ردود فعل سلبية ، لا تقل اهميتها كثيرا عن تلك التي تطرقنا اليها ، خاصة اذا طرأت على حياة الانسان دون اعتياد عليها ، مثل ذلك : الحرمان العاطفي باشكاله ، كالحرمان المفاجيء من عطف الاب او الام او الحبيبة .. ومثل هذا الحرمان المادي ، كأن يرى الانسان الآخرين يتمتعون بملاذ الحياة وسعادتها ، وهو لا يملك شروى نقير يسد فيها الرمق .. ومثل الحرمان المعنوي ، كأن يرى الانسان غيره على جانب من السطوة والمهابة والتقدير والاحترام ، اما هو فلا شأن له ولا اعتبار ، شأنه شأن عملة فقدت قيمتها النقدية ، فاصبحت غير صالحة للاستعمال .. ان آثار مثل هذه الحرمانات وسواها ، تبدو أولا ، بشكل علاقات خاطئة او معقدة ، بين المنطوي وبين الاخرين ، تنقلب بعد ذلك الى علاقات خاطئة ومعقدة في أعماق المنطوي نفسه .. وهنا يبلغ الانطواء اعوص مراحله واكثرها خطورة ، اذ ان علاقاته مع الاخرين ، تنحسر وترتد الى ذاته ، وبانحسار هذه العلاقات ، يفقد عنصرا من عناصر الاراحة والترويح عن الذات ، الا وهو الاصطدام مع الآخرين .. ذلك ان الانسان يشعر بالراحة الفكرية ، حين يحول الشحنات الفكرية او العاطفية الى فعل من الافعال ، او مشروع من المشاريع .. ان الفكرة

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩

مهما كانت صحيحة وسليمة ، تصبح مثار قلق وازعاج ، اذا ظلت مجرد فكرة ، خاصة اذا تصدت لها موانع فرضت عليها ان تظل في حالة مخاض دائم . انها تهفو لان تتأكد في فعل ، حتى لا تترجم الى احلام طوبائية ، او امنيات فاوستية ..

هذا شأن الفكرة ، اذا كان المانع الذي يمنع تحققها خارجيا أو خارجا عن طوق صاحبها ، فكيف ان كان المانع داخليا ، وضمن استطاعة صاحبها ؟؟. كيف يكون موقف الانسان ، اذا اعتمل في ذاته دافعان : الاول يلح عليه حتى يقدم ، والاخر يلح عليه حتى يحجم ؟؟..

ان المنطوي يتعرض الى مثل هذا الصراع تقريبا ، في كل مشكلة يجابهها ، وفي كل مرة ينتصر دافع الاحجام على نقيضه حتى ولو ناقض هذا الرفض ميول المنطوي ورغباته . ولولا ان هذا الانقسام في ذاتية المنطوي يتلاشى سريعا ، بفوز عناصر الانطواء ، التي تكسر حدة الرغبة في التطلع الى الخارج ، للاقى المنطوي نتائج سيئة ، قد تودي به نهائيا .. ولكن فوز عناصر الانطواء ، والتخلي عن « الخارج » ينبغي الا يوصف بموقف اللامبالاة ، لانه في حقيقته موقف التطرف في المبالاة والتزمت فيها . اذ ان من الاسباب الوجيهة التي تؤدي الى الانطواء : دقة الحساسية ورهافتها ، سرعة الانفعال ، التأثر بالمحيط الخارجي ، ضغط الزمن الذي يجب ان يمر بين الفعل ورد الفعل ، والاصرار على ان تكون الامور على هذا الشكل وليس على ذاك ..

ان المنطوي بهذا الوصف يخالف الآخرين الى حد بعيد ، الآخرون يأخذون غالبا بالقول : ان لم يكن ما تريد فأرد ما يكون .. اما هو فيفضل ان يكون شعاره : ان لم يكن ما اريد فلا شيء يجب ان يكون .. انه ليس عدميا ولا مباليا ، كما قدمنا ، ولكنه لا يمكن ان يقف موقفا ايجابيا بالنسبة الى ما لا يريده ، وارادته دائما في حالة الاشتداد ، انها دائما في موقف التطرف ، اما في هذا القطب ، واما في ذاك القطب الذي يناقضه ، اما حلول الوسط فلا وجود لها في قاموسه ، لذلك فانه غالبا ما يكون على خلاف مع الاخرين ، لان موقف الوسط هو موقف الكثرة الغالبة من الناس ، وموقف الوسط هذا هو الذي يرفضه المنطوي بكل اصرار ، يرفضه ويقف موقفا سلبيا بحتا ، فيعطل امكانياته وقدراته ويهدرها سدى ، ويحرق اوقاتا طويلة في تأملات وهمية لا تنتهي ولا تجدي ، ويعتقد فوق ذلك كله ، انه هو المصيب في تصرفاته كلها ، وغير المخطىء في تصرفاته كلها ..

ان هلوساته هذه ، ليست ناتجة عن ضحالة في التفكير ، وانما عن تزمت في التفكير .. لانه يعي بمنتهى الدقة والحساسية كل ما يجري حوله من امور ، ومع ذلك فانه لا يلزم نفسه فيها ، ان ما يلزم نفسه فيه هو ، ان لا يسير في ركاب الامور ، وان لا يسير في ركاب نفسه .. ويبدو التناقض لاول وهلة في هذين الاطلاقين ، ذلك انه ان لم يسر الانسان في ركاب نفسه ولا في ركاب الآخرين ، فمعناه انه لا يسير مطلقا .. ورغم ان ذلك التعليل لا يخلو من الحقيقة ، فان تعليلا آخر يبدو مقبولا ايضا ، وهو ان للمنطوي نهجا خاصا يتبعه ، ويظل يتبعه ، ان كان هذا النهج متفقا مع الواقع الذي يقره هو والآخرون وطبائع الامور ، ام غير متفق ، انه يتفق في هذا المجال مع المصلحين الذين يقلبون القيم السائدة ليسيدوا مكانها ما هو انجع منها ، غير آبهين باعتراضات المعترضين ، ويختلف معهم في انهم يمثلون ذروة النشاط ، في حين يمثل هو غاية الخمول . يفوزون هم بالنجاح المؤزر ، بينما يلاقي هو منتهى الخذلان ..

وكنتيجة لكل ما قدمنا ، يمكننا ان نسمي الانطواء ، طريقة في السلوك ، يتخلى فيها المنطوي عن المفاهيم العامة ، ويتلبس مفاهيم خاصة ، تترسخ في ذهنه مع الزمن ، وتأخذ شكلا صلبا ، يصبح من العسير جدا عليه ان يستبدلها بسواها . وحين يلاحظ عبث المجتمع بمقدساته هذه ، واستهتاره بها ، يهب مدافعا عنها ، وفي نيته أن يمحو كل ما عداها ، ولكن المجتمع يكيل له الضربات متتالية ، ليحافظ هو الآخر على مفاهيمه ، وهكذا يصاب المنطوي في اغلى مقدساته ، بينما تبقى مفاهيم المجتمع هي هي . عندها تنمو عنده افكار جديدة مفادها ان المجتمع آثم وانه متآمر عليه .. ونتيجة لهذه النتيجة التي وصل اليها فان العلاقات بينه وبين المجتمع تزداد سوءا وتعقيدا ، فبعد ان كان يعتبر ان ما بينه وبين المجتمع لا يعدو خلافا على تفسير المفاهيم وترجمتها ، اصبح يعتبر ان المجتمع ، كل المجتمع ، يحقد عليه، ويتمنى الخلاص منه بأية وسيلة . ولانه لا يستطيع ان يقاوم نقمة المجتمع العارمة ، يتخلى عن الجهاد المقدس الذي اعلنه دفاعا عن القيم، وينسحب من الميدان ويغلق خلفه كل الطرق التي توصله بالآخرين ، فينقطع بينه وبينهم باب الجدل الذي كان يهون عليه الامور دون ان يدري ، وحين يلقى نفسه وحيدا تعصف به اعاصير الحياة ، يملأ الظلام الدامس فؤاده ، فتختلط عليه الدروب في وضح النهار وتطبق عليه الكآبة ، ويغدو كل شيء في ناظريه مثاراً للانزعاج والقلق ، حتى الملذات التي يتبجح بها الآخرون تصبح في اعتقاده مكدرات تبعث على الهم والغم ، ويتمنى لو ان الحياة تخلو منها الى الابد .. هكذا يغدو المنطوي حينما تتلبسه عناصر الانطواء فلا يستطيع الانفلات منها ، كما لا يهيأ بالرضوخ اليها ، وهو وان اشاح وجهه عن المجتمع وأفقده امكانياته وقدراته فان المجتمع اياه هو الذي دله على دروب الانطواء وعلى مفارقها ، لان المنطوي لم يفضل ـ بمحض اختياره ـ ان يكون منطويا ، ولا كان منطويا بطريق الصدفة او الفطرة .. ان المجتمع هو الذي قام بتكريسه منطويا . ان لبنيته العقلية والفيزيولوجية دورا مذكورا في تقبل الآراء التي القحه فيها المجتمع ، ولكن بنيته العقلية والفيزيولوجية كان في مكنتها ان تتقبل نقيض ما فرض عليها ، ما دامت في دور القبول ، فاذا كان المنطوي قد أساء لنفسه وللاخرين لانه كان على ما هو عليه ، فان ما يشفع له هو ان الآخرين هم الذين زرعوا بذور الانطواء في صلبه ، وهم الذين نموها .

درعا (سوريا)

صقر الخوري

صدر حديثا عن دار دمشق

النظرية المادية في المعرفة

تأليف روجيه غارودي

نرجمة ابراهيم قريط

السعر ٨٥٠ ق.

يصدر قريبا :

ديالكتيك الطبيعة

لفريدريك انجلز

المادية والنقد التجريبي

تأليف لينين

دار دمشق للنشر والتوزيع

دمشق ـ شارع بور سعيد